المحور03: رواد الشك المعاصر (الهرميوطيقا الشكية)

تمهيد: عادة ما يربط الباحثون المعاصرون بين نيتشه وماركس وفرويد، ويعتبرونهم شكاكا معاصرين، حيث نجد بول ريكور يصنفهم ضمن ما يسميه " الهرمينوطيقا الشكية "، حيث يشير شكهم بشكل عام إلى الحاجة إلى إعادة النظر في المعتقدات والأفكار المتوارثة حول الطبيعة البشرية والمعرفة والوعي والواقع الاجتماعي، غير أن الدارس لهؤلاء الفلاسفة لا يجد انسجاما في شكهم، أي لا يخضع شكهم لنظرية واحدة، بل إلى وجهات نظر مختلفة:

1- فريديريك نيتشه (Friedrich Wilhelm Nietzsche (1844م- 1900)

أ- حياته ومؤلفاته:

نيتتشه فيلسوف وفيلولوجي وشاعر ومؤلف موسيقي ألماني، ولد في 10أكتوبر من عام 1844، في بلدة روكن Rocken في بروسيا قرب ليبتسبح، وصادف مولده، يوم عيد الملك البروسي الحاكم فريدريك غليوم الرابع، وفي عام 1858 التحق نيتشه بمدرسة بفورتا المرموقة، وبعد تخرجه عام 1864 غادرها إلى جامعة بون التي درس فيها فصلين وخلال تلك الفترة بدأ إتجاهه يتبلور في دراسة اللغويات والآداب الكلاسيكية، ثم انتقل إلى جامعة ليبزينغ حيث بعمر الأربعة والعشرين تقلد منصب كرسي اللغة في جامعة بسيل في 1869 حتى استقال منها عام 1879 بسبب مرضه.

اهتم إلى جانب فقه اللغة والأدب الكلاسيكي بالموسيقى والفلسفة والشعر والتأليف إلى أن وافته المنية في 25 أوت 1900 بسبب مرض عقلي بويمار Weimar. من أهم مؤلفاته: " هكذا تكلم زرادشت"، " انسان مفرط في انسانيته " ، " ماوراء الخير والشر "، " مولد التراجيديا "، " جينيالوجيا الأخلاق " ، " العلم المرح " " أفول الأصنام "، " عدو المسيح "، " إرادة القوة."

ب- الشك النيتشوي والفلسفة:

من المهم وصف فلسفة نيتشه وصفا عاما قبل عرض تمفصلاتها الأساسية، وتبيان طبيعتها الشكية والنقدية: فهي **فلسفة نقدية** دون أن تكون استمرارا للكانطية: فالنقد عند نيتشه جذري يبحث عن أصول المفاهيم و الفلسفات والمذاهب ليوضح ما تقوم عليه من أوهام وخرافات قصد تقويضها، وليس فقط بحثا عن حدود العقل والتجربة، ومنهجه في ذلك هو المنهج الجينيالوجي، ا جعله يلقب " بفيلسوف المطرقة."

وهي **فلسفة حيوية** تربط الفلسفة بمفاهيم الحياة والنمو والتطور، وبالتالي بمفاهيم التاريخ والنسبية والتجدد، ولذلك كثيرا ما يصف الباحثون فلسفة نيتشه بالفلسفة غير المكتملة، حيث " يوجد عند نيتشه كما في أي حركة للفكر الإنساني ميل نحو الوضوح ونحو الوحدة، ولكن هذين مهددين دون هوادة بإكراهات جديدة، وبأوقات التردد، وبالظنون. نظرته الشاملة للعالم تبدو أنها ستتشظى في لعبة الظلال والتناقضات، إنها كلية حركية وغير مكتملة كما يجب أن يكون فكرا حيا."

إن هذه الفلسفة الحيوية المتجددة توضع **مقابل العدمية** التي تميز كل فلسفة تتنكر للحياة والتطور مثل الفلسفات المثالية والميتافيزيقية والدينية.

وهي فلسفة **تأويلية أو هرمينوطيقية**، حيث يدرجها بول ريكور ضمن الهرمينوطيقا الشكية أو الارتيابية، لأنها فلسفة تشكك فيما هو معطى من أفكار ونظم وثقافات وتؤولها تأويلا جديدا يختلف عما هو راسخ أو سائد بين الناس من أفهام وأوهام, ولأنها فلسفة تتطلب التأويل لما يتميز به أسلوبها، حيث " عند نيتشه الأدب والشعر حاضرين، ليس فقط في هكذا تكلم زرادشت، لكن أيضا في القصائد والأقوال المأثورة. سخرية، غموض، محاكاة ساخرة، روح المفارقة، استعارات، رمزية، إبداع كلامي توجد كلها حتى في النصوص الفلسفية الخالصة " وهذا ما جعل البعض يصف فلسفة نيتشه بالصعوبة والتعقيد، بالإضافة إلى رفضه الاندراج ضمن التقليد الفلسفي المعروف قبله.

وأخيرا، يطرح نيتشه **فلسفته كفلسفة للمستقبل**، رغم أنها تستلهم ديونيزوس، فهو يقول: " إنني أحد المنحدرين عن الفيلسوف ديونوزوس " فهو يميز بين الفلسفة ما قبل سقراط -pré

socratique والفلسفة بعد سقراط post-soratique، الأولى. تستجيب للروح الديونوزوسية مع الفلاسفة الطبيعيين وفيثاغورس، فهي فلسفة تفهم الحياة فهما تراجيديا، وتكرس الفلسفة من أجل الحياة. الثانية تبحث عما وراء الحياة لذلك فهي تتأسس على العدمية، لأنها إما تؤسس الوجود على الميتافيزيقا، أو المبادئ المتعالية أو العقل وحده، ومن هنا يرفض نيتشه الميتافيزيقا الأفلاطونية والمثالية المتعالية وكل فلسفة عقلانية تختصر الحقيقة في العقل على غرار الديكارتية: فالميتافيزيقا في نظره تحط من قيمة عالمنا المحسوس بجعل الحقيقة خارج الظواهر التي تبدو مجرد ظواهر مصطنعة و ظلال للحقيقة، لذلك يجب تجاوز الميتافيزيقا، فهي ناشئة عن معاناة الإنسان وضعفه، كما يناقش نيتشه الكوجيطو الديكارتي بالتساؤل عن معنى الأنا المفكر الذي تتأسس عليه فلسفته، وينتهي إلى أن هذا الأنا المفكر لا يكفي لإثبات الوجود، فليس الإنسان بالعقل فحسب، بل هو قبل كل شيء جسم ومجموع قوى غريزية وحيوية وانفعالية ودوافع لاشعورية بحسب ما يؤكد شوبنهاور.

ج- الفن: الفن الحقيقي لا يتمثل في الأسلوب والشكل وخدمة القواعد الجاهزة، بل هو حركة حيوية متدفقة تدفع الفنان إلى تغيير الواقع نحو الأفضل. إن أساس الفن هو الإبداع والحرية وخدمة الغرائز الحيوية التلقائية والتطلع إلى المستقبل وتحطيم القواعد الثابتة والعادات الراسخة، ولذا الفن " أكثر قيمة من الحقيقة بمعناها الأفلاطوني المسيحي." وإن أهم شيء في الفن هي التراجيديا أو المأساة، فهو التعبير عن الحياة باعتبارها مأساوية تعرض " للصراع الخالد بين " الثابت " الأبولوني والحركة الديونوزوسية وعودها الأبدي " وبالتالي يصبح الجميل مرتبط أكثر بالجسم، بالإحساس والمتعة واللذة والنشوة والتأثير، وتغدو الجمالية هي التفكير في هذا الجميل. والفن ليس الفنون أو الآثار الجميلة، فهذه الأخيرة ليست إلا تجسيدا جزئيا له، لأن الفن يأخذ معنى أشمل عند نيتشه وهو القدرة على إبداع الأشكال الحيوية المتناغمة لوجود الإنسان.

ح- الدين:

إذا كانت العدمية هي عدم للحياة فإن جوهرها يجده نيتشه في الدين، فـ"مختلف الأديان التي عرفتها البشرية بما في ذلك البوذية، الكونفوشيوسية، اليهودية، والمسيحية، أسست إجمالاً للعدمية النافية وساهمت بنصيب وافر في الحفاظ على نوع الإنسان في درجة متدنية، لقد حافظت على الكثير من الذين كانوا عليهم أن ينقرضوا"، لكن نيتشه يركز أكثر على الدين المسيحي والفكر اللاهوتي المرتبط به، وهو عندما يعلن " موت الاله " فإنه يقصد موت الإله المسيحي، وقد يتبادر إلى قارئ نيتشه من خلال هذا النقد العنيف للدين السؤال التالي: هل يرفض نيتشه الدين أم الفكر اللاهوتي المرتبط به ؟

ذلك أن نيتشه يعتبر الدين غطاء لمصالح فردية ونوع من التعمية على الواقع، ومثبط لإرادة الإنسان، ويعلمه الصبر والانتظار والضعف، وبالتالي ما هو الهي، وما هو فوق المحسوس سيغادرنا، بل نحن الذين قتلناه، مما ينبئ بغروب شمس المسيحية.

والبديل عن هذه العدمية للدين هو التأسيس للإنسان المطالب بأن يعيش كما هو، وفقا لإرادته في الحياة، ووفقا لطبيعته الفردية، ويتطلع إلى " الإنسان الأعلى " يقول نيتشه على لسان زرادشت: " أيها الرجال المتفوقون، إبتعدوا عن الساحة العامة، (....) الآن فقط جبل المستقبل الإنساني سيولد، الإله مات. الآن نريد أن يحيا الإنسان الأعلى."

د- قلب القيم والأخلاق:

إن تحطيم الميتافيزيقا والمثالية المتعالية وإعلان موت الإله تستدعي تحطيم القيم المرتبطة بها، فمهمة الفيلسوف هي " نقد كل القيم المؤسسة، بمعنى كل القيم المتعالية على الحياة والمبدأ الذي تقوم عليه، وإبداع قيم جديدة، قيم الحياة التي تدعي مبدأ آخر." وهذا النقد على مستوى القيم الأخلاقية سيجعل الفيلسوف في مرحلة اللاأخلاقية التي لا تعني أنه غير متخلق، بل تعني فقط رفضه للقيم المتعالية عن الحياة، باعتبارها عدمية يجب رفض مبدأها في الخير والشر، و طريقة تقويمها الأخلاقي الذي يربط الفعل الأخلاقي بقيم أخلاقية مطلقة كالواجب الكانطي أو المثل الافلاطونية، وهذا النقد أتاح لنيتشه التمييز بين أخلاق العبيد وأخلاق السادة: فأخلاق العبيد هي

أخلاق الضعفاء وأخلاق القطيع الذي يتبع الأوهام، إن قيم العبيد هي قيم الشفقة والرحمة والإحسان والخضوع والخوف والصبر...وهي أخلاق الكثرة، مما يجعل " الأقوياء والسعداء يصبحون ضعفاء عندما يجدون أنفسهم في مواجهة غرائز القطيع المنظمة وجبن الضعفاء وكثرة العدد." و بهذا يغيب الفعل والإبداع والإرادة ويسود الانحطاط، لكن هذه الأخلاق أصبحت قديمة و غير حيوية عند نيتشه، ويجب تجاوزها بالبحث والتأسيس لأخلاق جديدة قوامها إرادة القوة والتطلع إلى الإنسان الأعلى.

لقد وجد نيتشه الأخلاق الجديدة عند السادة الأرستقراطيين أو النبلاء ذوي الإرادات الفاعلة والغايات العظمى في التاريخ، وهم قلة من الناس. وإذا كانت أخلاق العبيد تأتيهم من مصادر خارجة عنهم، فإن أخلاق السادة تأتي من الإنسان نفسه، فالإنسان هو الذي يصنع أخلاقه انطلاقا من واقعه الحي، ومن الأرض الذي يعيش فيها، وهي أخلاق تستلهم من روح ديونيزوس الذي يتميز بروح القوة والتحطيم والرقص والفن والعفوية والطفولة واللعب والإبداع ومراعاة الجسد، وبالتالي فهي أخلاق الأقوياء المتطلعون إلى الأفضل من خلال قيم الشجاعة والتضحية والتحدي والهيمنة. " أحب أولئك الذين لم يحصروا البحث فيما وراء النجوم عن حقيقة للتراجع (...) لكن الذين بالعكس يضحون بأنفسهم على الأرض." إذن يتعلق الأمر بقلب للقيم والأخلاق بحيث يجعل نيتشه من قيم السادة هي القيم والأخلاق الحقيقية المرتبطة بالحياة، والتي يجب أن تحل محل أخلاق العبيد السائدة. والمبدأ الأساسي لهذه الأخلاق الجديدة هو " إرادة القوة " الذي لا يعني أكثر من سعي الإنسان إلى تنمية نفسه والعلو بها في الحياة، ولا يحمل أي مدلول سياسي أو إيديولوجي كما يذهب إلى ذلك جيل دولوز في كتابه نيتشه، وكذلك فؤاد زكرياء في كتابه " نيتشه "، يقول نيتشه " لهذا السبب، الفيلسوف يجب أن يكون قادرا على أن يسمح لنفسه بالنظر إلى الإرادة من زاوية الأخلاق. الأخلاق مدركة كعلم لتراتبية هرمية مهيمنة، من حيث تنشأ ظاهرة الحياة " ومادامت القيم الأخلاقية يصنعها الإنسان ومرتبطة بحياته، فهي قيم نسبية، تختلف باختلاف القوى الحاملة لها واختلاف إراداتها، واختلاف الظروف المكانية والزمانية، فأخلاق العبيد ليست كأخلاق السادة، والغاية الأساسية لهذه القيم هي خدمة منافع الإنسان وتكيفه مع الحياة.

ه- فكرة العود الأبدي:

أكد نيتشه أن فكرة العود الأبدي فكرة أصيلة عنده، فرغم أن تلك الفكرة موجودة في الفلسفة اليونانية لا سيما عند فيثاغورس، و في الفكر الهندي إلا أن نيتشه يقر بأنه فكر فيها في فسحة بإيطاليا، ومهما يكن الأمر، فإن تبسيط هذا المفهوم يستدعي إن نحلل حدوده الأساسية: فالعود من العودة وهي تحمل معاني الرجوع والتكرار، بينما كلمة أبدي من الأبد، وهو مفهوم متعلق بالزمن القادم اللامتناهي، ومادام شيء سيرجع معناه أنه قد كان في الماضي، وبالتالي، فإن فكرة العود الأبدي تعني أن حوادث العالم الماضية ستعاود الرجوع في المستقبل وتحدث فيه، بصفة دائمة أو أبدية. إن حوادث العالم هنا ليست فقط الظواهر الطبيعية، بل كل الحوادث بما فيها الأشخاص والنظم الفكرية والأخلاقية والاجتماعية...وهكذا فإن أخلاق السادة قد ظهرت عند اليونان القديمة، وعاودت الظهور في الحضارة الرومانية، ومع نابليون...، وهذا يعني أن فكرة العود الأبدي عند نيتشه ليست مرتبطة بالمكان، بل بالصيرورة الزمنية، فهو يقول " إن عودة كل شيء هي أكبر تقريب ممكن لعالم الصيرورة من عالم الوجود. "

إن قيمة فكرة العود الأبدي عند نيتشه هي تأكيد خلود الحياة من خلال تأكيد خلود العالم وحوادثه المختلفة، وهذا يخدم فلسفته التي توجهنا إلى حب الحياة وخدمة قواها الحية، وتعويل الإنسان على إرادته ومسؤوليته على أفعاله. فمن يؤمن بالعود الأبدي، بحسب نيتشه، يجب أن يسير وفق القاعدة الأخلاقية الكانطية: " افعل بحيث تصلح قاعدة سلوكك لتكون قانونا عاما يسري على الجميع " فالإنسان مطالب بالحذر في إتيانه لأي فعل، لأنه سيعاود القيام به لاحقا. فليحذر أخطاءه وليتحمل مسؤوليته.

2- فرويد سيغموند: S. Freud:((1856-1939)

عالم وطبيب أعصاب نساوي، يعتبر من أهم الشخصيات العلمية المؤثرة في القرن العشرين.حيث أثر عمله على العديد من المجالات، بما قي ذلك الطب النفسي والفلسفة والفن والأدب. اشتهر بنظرية التحليل النفسي. من أهم آثاره: تفسير الأحلام، ما فوق مبدأ اللذة، الأنا والهو، قلق في الحضارة، مستقبل الوهم.

أفكاره الأساسية: تقوم أفكار فرويد على الشك في العقل والمعرفة والسلوك والدين من خلال نظريته في النفس ومن خلال منهجه في التحليل النفسي:

- نظريته في النفس: يقسم فرويد النفس أو الأنا إلى ثلاثة أقسام: الأنا، الهو، الأنا الأعلى.

الأنا يمثل الشعور الواعي، الهو يمثل الجانب الباطني الخفي من النفس وهو في نظره اللاشعور، الأنا الأعلى يمثل ما يحكم النفس من قيم أخلاقية واعتقادية.

يعتبر فرويد أن مجال الوعي ضيق جيد، وأن الإنسان ليس دائما واعيا بما يقوم به من أفعال، بينما يعطي أهمية للدوافع اللاشعورية، فأكثر الأفعال التي يقوم بها الإنسان لا يعيها، لأنها تخضع للدوافع اللاشعورية مثل الغرائز خاصة غريزة الليبيدو،العقد النفسية، والميول المكبوتة والذكريات المنسية، والوساوس المتسلطة.

لكن مهمة الأنا الأعلى هنا هي معارضة تلك الدوافع من خلال القيم الأخلاقية والدينية، وبالتالي هناك تناقض بين دوافع الهو اللاشعورية ومتطلبات الأنا الأعلى الأخلاقية والدينية، ودور الأنا هو فقط محاولة التوفيق بن الجانبين عن طريق الوعي بالواقع ومتطلباته التي تسمح بتلك الأفعال أم لا.

- منهجه في التحليل النفسي: لقد استطاع فرويد البرهنة على نظريته في النفس من خلال منهجه في التحليل النفسي وهو ارجاع الأمراض النفسية والسلوكات النفسية إلى دوافع لاشعورية

أ- الأمراض النفسية: مثل الهستيريا والقلق والاكتئاب أسبابها لاشعورية، فالهستيريا ناتجة عن صراعات نفسية داخلية والرغبات المكبوتة، وكذلك القلق أو النسيان المرضي قد يكون ناتجا عن دوافع مكبوتة، أما الاكتئاب فهو ناتج عن الرغبات المكبوتة والشعور بالذنب.

ب- السلوكات النفسية الأخرى: فسر فرويد أيضا الأحلام، والنسيان العادي، التعاطف، الحب، الإبداع الفني خاصة بدوافع لاشعورية مثل الغرائز والعقد والميول المكبوتة.

النتائج:

- تعميم اللاشعور على كل مظاهر الحياة النفسية، وتحديد دور الشعور أو الوعي في مجال ضيق، ومن ثم التقليل من إرادة الإنسان وفعاليته في السلوك والعمل.
- أنه يمكن تفسير الأمراض النفسية بردها لدوافع لاشعورية، وبمجرد أن يعيها المريض يشفى.
- اعتبار الدين من الأوهام التي تعكس مخاوف الإنسان من الطبيعة، فالدين عنده هو عصاب جماعي يعبر عن صراعات نفسية داخلية.
- تعبر الثقافات والفنون والآداب أيضا على دوافع لاشعورية مختلفة.

3- كارل ماركس : K. Marx (1818-1883)

كارل ماركس فيلسوف ألماني ذا نزعة مادية، كان له تأثير واسع على الفلسفة والفكر في أوربا والعالم. من أهم آثاره: " رأس المال "

أ- فلسفته: تقوم فلسفة ماركس على نظريتين هما النظرية المادية التاريخية، والنظرية المادية الجدلية، الأولى تفسر الطبيعة والتاريخ الانساني بردهما الى أسس مادية، فليست الطبيعة والإنسان إلا مظاهر مادية ناتجة عن تطور المادة، إذا كانت المادية الطبيعية ترجع كل شيء في الطبيعة بما فيه الحياة البيولوجية إلى المادة، فإن المادية التاريخية تفسر التاريخ الإنساني برده إلى علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج، حيث

تطور المجتمع الإنساني من المجتمع المشاعي إلى الإقطاعي ثم الرأسمالي ومنه إلى الاشتراكي وأخيرا الشيوعي..

أما النظرية المادية الجدلية، فهي الفلسفة التي ترجع الفكر إلى المادة، وتتبنى المنهج الجدلي المادي في النظرة إلى الأشياء والموضوعات كلها، فكل شيء يحدث يحمل نقيضه رغم الوحدة بين الأضداد، كل شيء يتحرك من الكم إلى الكيف.

النتائج المترتبة على هذه النظرة المادية:

- الشك في الوعي بالتأكيد أن الوعي الإنساني قد يكون مستلبا للظروف المادية، ومدى الوعي بالمصالح الطبقية، والخضوع لتأثير الايديولوجيا، فالايديولوجيا تعمي الانسان عن رؤية الحقيقة، ومن هنا كان نقده للايديولوجيا والفلسفات المثالية التي تعد الانسان بعوالم خيالية وطوباوية. مثل جمهورية أفلاطون أو إشتراكية سان سيمون.
- التركيز على الممارسة من خلال التشكيك في الفلسفات المجردة المثالية التي لا تؤدي إلى تحسين الواقع، لذلك يؤكد على أهمية العمل الثوري في الانتقال من المجتمع الرأسمالي ال المجتمع الاشتراكي والشيوعي.
- ينظر ماركس الى الدين أيضا أنه أداة للإستغلال والمحافظة والتخلف، ويعكس في العمق خوف الإنسان من القوى الطبيعية في بداية حياته، ما يفسر عبادته للظواهر الطبيعية ثم تطورت هذه العبادة إلى عبادة قى ميتافيزيقية مثل الآلهة.

خلاصة: نستنتج مما سبق: أن رواد الشك الثلاثة ماركس وفرويد ونيتشة رغم اختلاف مناهجهم وفلسفاتهم الا أنهم شككوا في وعي الإنسان وارادته وفسروا المجتمع الإنساني والحياة الإنسانية والعالم تفسيرات توضح تأثير عوامل كثيرة مثل الغرائز والدوافع اللاشعورية والعوامل الاقتصادية والاوهام والايديولوجيات، وفي المقابل أكدوا إمكانية تجاوز الإنسان للتأثير السلبي لتلك العوامل بالتركيز على الإرادة والوعي والممارسة والعلم والمعرفة.